حول مرب شعبي كبير

الزعيم الزنجي بوكر وشعبه

بقلم الدكتور احمد فريد رفاعي

شرع صديقنا الدكتور احمد فريد رفاعي في اخراج الجزء الاول من كتابه التاريخي « الشخصيات البارزة » ونحن نغتنم هذه السرور بحثاً تيا منه كنموذج لما يحتويه هذا الكتاب الجليل آملين ان نعود اليه عند ظهوره

١

لاتكون المدنية كاملة إلاّ اذا كانت الانسانية كاملة . وكمال الانسانية في كمال المساواة بين افرادها . وربما كان من الحق ان نقول ان الصراع القديم بين الامم من جهة وبين الافراد والافراد من جهة اخرى ينطق وحده بما اصاب الانسانية في الماضي من نقص محسوس في توافر المساواة العادلة حينذاك . وربما كان من الحق ايضاً ان شبه الصراع الحاضر ، ينطق باتفاء المساواة الكاملة بين مختلف الالسنة والعقائد والالوان

على انه من الحق الجدير بكل تقدير والخليق بكل اعتراف ان الثقافة الكاملة وذيوع الثقافة يتجان طمأنينة النفاع التي يثبت اركانها ويعمل على توطيد دعائمها سهولة المواصلات بين مختلف الشعوب . كما انه من الحق الجدير بكل تقدير ان نعترف بأن انتشار الاختراعات الحديثة وسهولة استعمالها وذيوع استخدامها مما يؤدي مدارجة الى تذليل صعبات يؤبه لها ومما يعمل على التقريب في كل شيء في المسافات والابعاد . في الصلات والاحتكاكات . في الاجتماعات والملابسات . وربما يجوز لنا القول او التكهن بالقول أن اختلاف الالسنة والعقائد والالوان آخذ في التضاؤل والزوال من حيث زنة الاشخاص وكفايات الاشخاص . وان القيمة الحقيقية للرجل ستكون اكثر ارتباطاً بمقياس جهوده وانتاجه وعمله من مقياسها بلغته وديانته وجنسيته

تلك حقائق عامة يؤيدها التاريخ في الماضي القريب والبعيد ، وهي في الحاضر ميسورة مستساغة لا تتطلب منك برهنة ولا تدليلاً

على اننا لم نصل الى تضاؤل أثر اختلاف الألسنة والعقائد والالوان من حيث زنة الاشخاص وكفاية الاشخاص في غمضة طرف . ولم يكن الطريق سهلاً معبّداً بطيعة الفطرة وطبيعة الاجتماع . وانما كانت ثمت من قربانات عديدة وضحايا وفيرة تقدمت بها

الانسانية راضية او كارهة في سبيل العدالة العامة أو المساواة العامة أو في سبيل انتصار الفكرة على اقل تقدير . وربما كان من الحق أن نقول ان الانسانية لاتزال في منتصف الطريق ولكن من الحق ايضاً ان « بوكر وشنجتون » قد وقف حياتهُ المنتجة وشخصيته العاملة في سبيل الانتصار العملي لتلك البديهية العادلة التي تقرر أن القيمة الحقيقية للرجل هي اكثر ارتباطاً بمقياس جهوده وانتاجه وعمله من مقياسها بلغته ودياناته وجنسيته

بل أن حياتهُ المنتجة وشخصيتهُ العامة تنطقان في كل أثر من آثاره وكل منحى من مناحي تصرفاته بصحة تلك البديهية . وتنطقان اكثر من ذلك بأن العبقرية تهبط على من تشاء وفي أي بقعة تشاء وانها ليست احتكاراً لجنس دون جنس وليست اسيرة لدولة دون اخرى وإنما هي مشاعة للعاملين مبذورة للمحسنين وانها في تناول كل صانع ماهر وعامل قدير . وتنطقان اكثر من ذلك بأن البطولة الحقة لا تكتسب بالميراث ، ولا بالمجد التالد والطارف أو الحسب والنسب ، ولا بزخرف المديح وقصيد الشعر ، ولا بجمال الجاه وجمال المال وجمال البشرة ، وإنما بالعمل الصامت . العمل المستمر . العمل المجدي . العمل الذي ينطق الانواء من حيث لا تريد ، ويطلق الالسنة من حيث لاتقصد ، ويكثر الاتباع والشيعة ويكسب الافئدة ويملك القلوب ... واخيراً يجترف ما امامه بالحق لا بالباطل

٢

وإنك لواجد في حياة بوكر وشنجتون الزعيم الامريكي الاسود ما لا تجد الاَّ القليل منهُ في الزعماء البيض لان زعامته قد قامت بالنفس المتواضع والايمان المتواضع والفكرة المتواضعة . ولست في حاجة الى ان اقول لك ان الزعامة الخالدة متواضعة في كل شيء وان الزعيم الفذ من يفتح لك الباب على مصراعيه لتدخل الى قلبه ولتعاشره في ساحة نفسه ولتغدو وتروح في خلجاته وتفكيراته ومسراته وإضاقاته واناته ولذاذاته

لست في حاجة الى ان اقول لك ان الزعامة الخالدة لا تشعر بهنة ولا يعلق بها وضر ولا دنس اذا اطلعتك على ما يعتور طريقها من صعاب ، وما يقف في سبيلها من عقاب ، لانها وهي تذلل ذلك كله بمرهف ارادتها وتكشحه بتيار عزمها تشعر بواجبها المقدس ان تصف لك الداء والدواء وان تخلص في تشخيص الحالة لتوسم النفوس العالية ما اختطت لنا من خطط ومعابر ، وسبل ومناهج .... لانها انارت السبيل وبددت الديجور !

واخيراً لست في حاجة الى ان اقول لك ان القشور تعصفها الريح وان الزخرف تحرقهُ اشعة الشمس وان الطلاء لا يبقى مع الزمن . وانما هو اللباب قد كتب لجوهره الخالص كل حياة وبقاء الانسانية تمر في طرق من ضعف وخور ونقص في المال والجاه وتمر في ادوار من

الجهالة والعوز وليس لها من نجاح الا بعد فشل، ولا من قوة الا بعد هون، ولا من ثراء الا بعد اضاقة، ولا من نشاط الا بعد فتور، ولا من توفيق الا بعد شطط . فلماذا لا يطلع الانسان على حقيقة زميله الانسان ولماذا لا تقدم لمرضى الانسانية العلاجات الصحيحة لامراض الانسانية بلا برقشة ولا تزويز ؟

الانسانية بحاجة الى « العلم والعمل » فلماذا لا يكون المتمدين عاملاً الى جانب عالمه . والانسانية بحاجة الى التكاتف العام بين افرادها فلماذا لا يعيش الناس في وفاق ووئام. والانسانية بحاجة الى ضروب شتى من الاصلاح الروحي والعلمي واليدوي فلماذا لا تنفق اوقاتها لذلك كله بدلاً من الطلاوات الكاذبة والتكاليف الكاذبة والاوضاع الكاذبة.....!

ويظهر ان الشرق في نهضته بحاجة الى ان يقف على تاريخ ذلك الزعيم العملي الكبير لانهُ زنجي اسود قاد امة وحرر شعباً ، ولا لانهُ بطل متواضع يحيط لك التمام عن حقيقة نفسه ويقف على دقائق حياته ، ولا لان حياته مرآة نقية للخلق التي ، ولا لان ارادته حديدية لا تكل ولا تني ، ولا لان جهودهُ أبدية لا تخمد ولا تفتر . . . . . لاهذا فقط ولا لما هو من طبيعة هذا فقط ؟ وانما لانهُ مربٍّ شعبيّ لا مثيل لهُ قد امتاز « بالعلم والعمل معاً »... وقيهما معاً نجاح الانسانية واستقلال الافراد وتحرير الشعوب

٣

يقول لنا « بوكر وشنجتون » انهُ ولد اما في سنة ١٨٥٨ او ١٨٥٩ في مزرعة مقاطعة فرانكلن بفرجينيا وانهُ لا يذكر المكان تماماً ولا تاريخ الميلاد بالدقة . وانما يذكر انهُ ولد عبداً رقا ويذكر ان بداية حياته كانت شقية تعسة ذاق فيها الامرين . وانهُ كان يقطن كوخاً من الخطب حقيراً مع والدته واخيه واختيه الى ما بعد الحرب الاهلية لما اعلن تحرير العبيد جميعاً

ثم هو لا يذكر عن جدوده لا القليل ولا الكثير وجماع ما سمع به همساً في احياء زملائه العبيد ان القوم قد احتملوا سوء العذاب في نقلهم من افريقا الى امريكا حيث يبوا بيع السائمة وان والدته فيما يفترض قد استرعت بشخصها نظر مولاها الذي اشتراها كما يشتري حصانه او بقرته . . . .

ثم يقول لنا انهُ لا يعلم عن امر والده شيئاً !

أجل انهُ لا يعلم عنهُ الا الطرف اليسير مما تناقلتهُ الافواه . فقد زعموا انهُ كان رجلاً من البيض كان يعيش على مقربة من مزرعة القوم وانهُ لم يحفل بشأن ولده بوكر هذا أيما احتفال ولم يحمل له ولده ازاء هذا الاهمال منهُ ضغينة ولاحقداً بل اغتفر زلته ورثى

لفعله وعزاها الى سطوة التقاليد المتبعة حينذاك

اما والدته فقد ذكرتنا انها كانت طاهية المزرعة . وقد سرد لنا سرقتها لصغار الفراخ من سادتها واستحضارها لاطفالها ليلاً تطعمهم مما لم يذوقوه . فقد كان طعام العيد خبزاً واداماً وقد دافع عن سرقتها دفاعاً منطقيًّا برر به ظروف فعلتها واسباب تصرفها قائلاً انها كانت نفسها ضحية من ضحايا نظام الرق وتقشفه . ولم يذكر لنا بوكر انهُ نام على سرير الا بعد اعلان التحرير واما قبل ذلك فقد كان ينام مع اخيه الاكبر جون ، واحته « اماندا » على فرشة تمش على الارض ، وبعبارة ادق كانوا ينامون على خلفان قذرة مهلهلة على سطح الارض

٤

ماذا كان يفعل في طفولته ؟

لقد كان القوم يستخدمونهُ فيما ارهقهُ ، وفيما قد ترك في نفسه العذبة الكبيرة الاثر العميق والذكرى المضنّة

يقول لنا بوكر عن تلك الفترة التي قضاها في براثن الرق انه كان صبيًّا قليل الجدوى ولكنه مع طراوة إهابه قد نيط به القوم عملية التظيف وحمل المياه الى المزارعين في الحقول كما ناطوا به النحاب كل اسبوع بالحنطة لطحنها على بُعد اميال ثلاثة من المزرعة

ويقول لنا بوكر ان القوم كانوا يضعون الغلال لهُ على ظهر الدابة ويقسمونه على جانبيها لسهولة حملها . وكثيراً ما يختل التوازن بين قسمي الغلال في الغرارة فتسقط ويسقط معها من على ظهر الحصان . قال : ولما لم اكن بالقوي القادر على اعادة وضع الغرارة في مكانها . فكثيراً ما كنتُ انتظر الساعات حيث انا الى ان تاح فرصة مرور عابر طريق يأتي لتقديم يد المساعدة في محنتي . وكنت اقضي ساعات الانتظار في « البكاء والعويل » . . . . . واخيراً يذكر لنا عودته من المطحنة متأخراً في الليل وبلغ فزعه من مقابلة الجنود الفارين الذين لا يرحمون آذان الملة السود وما ينتظره في المزرعة من صنوف التأنيب او الضرب جزاء تأخره الاضطراري

وهذا نمط مما مرَّ بطفولته ينطق بما هو من معدنه وما هو على شاكلته . . . . . وعظماء الرجال اشقياء في طفولتهم وكبار الارواح قد صهرت في مهودها وعذبت في تجاربها وتكوين القادة لا يكون في بسط ممهدة مفروشة على الجانبين بالازهار والورود بل بالحسك والاشواك والقتاد . . . . . !

٥

ستقول لي ماذا تعلمَّ « بوكر » حينما كان عبداً ؟

وأني انتظر هذا السؤال منك ، واترك الزعيم يتكلم بصراحته فيحيط القارئ عن حقيقتين يقول لنا « بوكر » انهُ لم يدخل مدرسة اثناء عبوديته ، وان كان يذكر انهُ ذهب مرة يحمل لسيدته الصغيرة كتبها حتى باب المدرسة . وقد قال صراحة ان سعادة جنات النعيم في نظره حينذاك ، ان يدخل المدرسة وان يدرس كما تدرس التلميذات في غرفة التعليم وليس من شك ان ذلك المنظر ترك في نفسه ولهاً وهياماً ، وحرقةً وضراماً ، أكثر بلا ريب من ذلك الأثر العميق الذي نالهُ من جارية « الكعك » وشعبي منظره ولذيذ مأكله ، فقد استلب منه اللباب وأساق منهُ العاب . وكم عقد خناصر الرجاء ان يعمل على أكله يوم يتم تحريره ..... تلك كانت امنيته القصوى يوم كان في الرق صبيًّا

ومن صريح اعترافات « بوكر » اثناء تلك الفترة من حياته انه لم يجلس على خوان واحد وأفراد اسرته ، وانما كانوا يأكلون اكل الحيوانات الخارسة كلٌّ يلتهم نصيبه التهاماً ، وينفرد به قعوداً وقياماً

وكذلك يعترف لنا انه قد عهد اليه في القيام بعمليات شد الحبال لتهوية الحجرات في منازل اسياده

يقول لنا « بوكر » ان اول ما تعلمه هو عدد « ١٨ » وكان لكل عامل عددٌ يوضع على تاج عمله اليومي وكان ذلك العدد رمزاً لعبد أسرته ومن ثمت حسر الصبي عن ساقه في حفظ الأعداد واستيعابها وتدرج منها الى الكتابة والقراءة

ويذكر لنا ان اول كتاب حصل عليه كان كتاب الهجئة « لوبستر » وشدَّ ما كانت دهشتهُ من كيفية حصول والدته عليه له

ونظراً الى عدم وجود احد في النواحي القريبة من ابناء جنسه يعرف القراءة والكتابة فقد صمم الولد ان يبذل جهده بنفسه في حفظ تلك الآليات

ويعترف لنا انه وان كانت والدته امية لا تعرف من الكتابة والقراءة شيئاً بيد انها كانت واسعة الآمال طموحة لان يتبوأ اولادها مكاناً عليًّا . وانها شاطرت ولدها في طاعيته في التعلم وعملت في تمهيد الطريق له ليسعف بطلبته

وكم كان « بوكر » يتضاءل خجلاً ووجلاً كلما اقترب منه شخص من البيض ممن يعرفون القراءة والكتابة فقد كان شديد الرغبة في السؤال عما لا يعلم والوقوف على ما لا يعرف وكان اذ ذاك قد التحق بنجم ملح وضالك اجتمع بأحد زملائه السود في مدينة « مالدن » . وكان قد تعلم القراءة والكتابة في « أهايو » وقد شاهده يقرأ في صحيفة وحوله جمهور من المستمعين رجالاً ونساء وكلهم رغبة في تعرف ما تحتويه الجريدة من

الأخبار والأنباء ..... وكان له من ذلك المنظر الذي ملأه اسىً وحزناً ومن منظر سيداته الصغيرات اللاتي احتمل لهنَّ كتبهنَّ الى مدرسة المزرعة ما الهب الهوبه وأضرم جذوته وأثار فيه كمين ميله الطبيعي الى تعلم القراءة والكتابة وحدا به الى ما يزع ويهيم من الاكباب على التحصيل بنهم وتصميم جديرين بكل اعجاب خليقين بكل تقدير

ومن الحتم علينا هنا ان نشير اشارة صغيرة الى ما في احتكاك الاطفال الصغار بالمثل العليا من الاثر العظيم في طبع تلك الصور المنتجة من نفوسهم اللدنة المفتونة بما تشاهد في محيطها الصغير

نفوس الأطفال اكثر ميلاً الى المجد واستساغة لمنايه. وهي بطبيعة عدم مراتها وعدم اصطدامها بصعاب الحياة وعدم تذوقها لخيبات التجاريب تستسهل العقاب وتشب بخيالها السريع الى ما لا تصل اليه الرقاب — فهي في طماحها وعدوها الى الذروة من كل شيء، وهي في وثبتها وعدم تشذيبها وتمليمها ، وهي في عدم تقيدها باعتبارات الاخلاق والعادات والطقوس ، هي في كل ذلك اقرب لدونةً ومرونةً واستساغةً لتشرب تلك الصور العالية وتشبثاً لها واقتداء بها وجرياً في منهاجها

فلا غرابة اذن وقد رأى « بوكر » منظر سيداته الصغيرات وهنَّ نظيفات كالملائكة، مكبات على التحصيل كالطيور المغردة ، يقرأن كتبهن كالبلابل الشجية ، ويفهمن ما لا يفهم ، ويعلمن ما لا يعلم ان يتحسر على حرمانه من ذلك النوع من السعادة سيّما ومهنته الخدمة التي تذل فهو اما في المنجم او الملاحة واما في طحن الغلال او شدّ المراوح او حمل مياه الشرب لمن يريد ارتواء وسقيًا

بل لا غرابة اذن وقد شاهد بعينيه تقدير ابناء جلدته لمن قرأ لهم صحيفة الأخبار فقد احتاطوا به وفتنوا بعلمه وأعجبوا بشخصه .... ولا ريب في انه من دواعي اذاعة صفات البطولة ونشر محامد الخلال تقدير الناس لصاحبها واحترامهم لذويها

مستحيل ان لا ترغم الناس صفات البطولة على احترامها. انها تغزو القلوب غزواً بلا استئذان ولا تعمد وبلا محاباة ولا مداهنة . انها تفتح المقاتل وتصل الى الصميم لأن الانسانية مهما كانت في الحمأة من المادية ومن الشهوانية لا تزال تحن الى المعاني الروحية او لا يزال للقبس الروحي فيها ولو في لحظات قصيرات وفيئات معدودات حنين الى معدنه وتحليق الى سمائه واوبة الى وكره . فلماذا اذن لا يزع « بوكر » وروحه هذا معدنها وذياك تربتها الى ما يتفق وقبسه الروحي وكيانه النفسي ؟

بل الشاذ والغريب ان يقع غير ما وقع ويحدث ما لم يحدث. أليس كذلك ؟ [لها بقية]